العولمة والخصوصية المحلية

☜ إعـــــداد

د/ محمد أحمد عبدالله الزهيري

جامعة إب - اليمن

لا يوجد مضمون أو ماهية واحدة للعولمة ولابد من الاعتراف مقدما أن هناك صعوبة في تحديد المعنى الوصفي الدقيق لظاهرة العولمة ، وتعود مشقة تحديد العولمة إلى تأثر التعريفات المختلفة لها بالمواقف الأيدلوجية من العولمة ، فهي في مفهوم المفكرين العرب تكاد تدور حول الهيمنة الاستعمارية والسياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية على العالم وهي الصورة الجديدة للإخطبوط الاستعماري وأنها محاولة سافرة من الأقوى لابتلاع الأخر الأضعف[١]

أولاً : مفهوم العولمة:

وهي أيديولوجيا تعبر بصورة مباشرة عن إرادة الهيمنة على العالم وأمركته،حتى عدا البعض(الأمركة) الاسم الحركي للعولمة ، لكننا سنحاول أن نلم ببعض تعريفاتها لتكتمل صورة الحدث وإن كنا نرى أن تعريفاً مبسطاً كالذي نورده هنا ابتداء يمكنه أن يقود إلى الهدف يتمثل هذا التعريف في تمثل العولمة هذا التداخل الكثيف في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين مختلف دول العالم والذي أصبح من المستحيل ضبط تأثيراته والتحكم فيه بالإجراءات التقليدية كإغلاق الحدود وقطع العلاقات الدبلوماسية مثلاً [٢]، و هناك تعاريف أخرى لظاهرة العولمة منها على سبيل المثال أنها: سهولة حركة الناس والمعلومات والسلع والأموال والأفكار بين مختلف الدول على نطاق الكرة الأرضية [٣] أو هي : العولمة فعل اغتصاب ثقافي وعدواني رمزي على سائر الثقافات أو السيطرة الثقافية والغربية على سائر الثقافات بواسطة استثمار مكتسبات العلوم الثقافية في ميدان الاتصالات ، أو هي كما يعرفها (برهان غليون) إنها تتجسد في نشوء شبكة اتصال عالمية تربط جميع اقتصاديات البلدان، أو هي الأمركة في صورتها الجديدة أو الليبرالية المتطورة وغير ذلك من تعريفات تجمع كلها على الأثر غير العادي

على العالم بأسره سواء كان هذا الأثر سلباً أو إيجاباً الكل متفق على قدرة الظاهرة على التأثير على أكثر من صعيد وفي أكثر من منطقة إنها ظاهرة تشمل الأرض بما رحبت .

أهمية الخصوصية المحلية

العولمة من خلال السياسات الليبرالية الحديثة التي تعتمد عليها ، إنما ترسم لنا صورة المستقبل بالعودة إلى الماضي السحيق للرأسمالية [٤]، فالعولمة في الحقيقة ليست وليدة اللحظة ، لكنها تراكم تاريخي أفضى إلى وضعية كونية معينة وقد بدأت العولمة منذ القدم فهناك من يرى أنها بدأت مع الإمبراطوريات منذ منشأها من إمبراطورية إغريق الإسكندر إلى إمبراطورية التاج البريطاني مروراً بإمبراطوريات الرومان والعثمانيين [٥] ، وهناك من يفضل النظر إلى هذه الظاهرة بصورة أكثر تأصيلاً وأكثر صلة بالثقافة والمعلومات من خلال منظور ثنائية الوجود الزمان والمكان . ففي البداية كانت عولمة الزمان بإتباع توقيت عالمي موحد المسمى بتوقيت جرينتش وعولمة التقويم الميلادي الشمسي ومحو خصوصيات التوقيتات والتأريخ المحلية لباقي مناطق العالم ، أو جعلها ثانوية الأهمية ، ثم كانت عولمة المكان من خلال التكنولوجيا المتقدمة في مجال المواصلات والاتصالات ليدخل المكان في دائرة العولمة ، وبهذا أي بعد عولمة الزمان والمكان ، لم يبق إلا عولمة الأحداث التي تجري في إطار الزمان ونطاق المكان ، وهذا ما تسعى إليه عولمة هذه الأيام شاملة جميع مناحي أنشطة الإنسان وممارسته الاجتماعية بتنوعاتها المختلفة ابتداءً بعولمة المعاملات المالية والتجارية وانتهاءً بعولمة الأجساد على مقاس معين ونمط وحيد ورؤية أحادية [٦] وهذا ما جعل الأمين العام السابق للأمم المتحدة الدكتور بطرس غالي يشعر بقلق متزايد تجاه هذه الظاهرة وتوجيهها الخاطئ وجعلها أداة بيد القوي لعرض

مفاهيمه وتسويق منتجاته دون أي اعتبارات أخلاقية لمن يشاركهم رقعة هذه الحياة ، فقد قال السيد / بطرس غالي إننا نعيش في غمرة ثورة شملت المعمورة بأممها ، ويزيد توضيحاً فيقول : إن كوكبنا يخضع لضغط تفرزه قوتان عظيمتان متضادتان إنها العولمة والتفكك ، ثم يستطرد قائلاً: وهو محمول بشحنة من القلق : إن التاريخ يشهد على أن أولئك الذين يعيشون في غمرة التحولات الثورية نادراً ما يفهمون المغزى النهائي لهذه التحولات[٧] ' لقد أصبح نداء هذا العصر هو لينتقد نفسه من يستطيع ذلك حيث أن من الملاحظ أن التقدم الاقتصادي الذي كان مأمولاً منه وكما هي غايته توفير رفاهية الإنسان ،إلا أنه على العكس من ذلك أصبحت العلاقة عكسية بين النمو الاقتصادي ورفاهية الإنسان فكلما ازداد حجم الاقتصاد زادت رقعة الفقر واتسعت أعداد الذين يغادرون هذه الحياة جوعاً وفقراً، كما أن ثورة التكنولوجيا قد قادت الإنسان في ظل توجه غير سليم يخدم مصالح ضيقة ومتطرفة إلى أن حرمته نعمة الأمن والاستقرار ونعمة المعرفة الصحيحة حيث يتم اليوم وباستخدام أحدث وسائل الاتصال تزويد المعلومة وضخ رسائل تحتوي العقل البشري وتقوده إلى تقديس فكر وثقافة ذات منشأ معين

لقد انطلق مسلسل العولمة باعتبارها ظاهرة لمرحلة متقدمة من تدويل الإنتاج والمشروعات والمعلوماتية والتكنولوجيا المتطورة وفتحت الأسواق مشرعة أمام حركة التبادل التجارية العالمية علماً أن حركة التدويل للقضايا المختلفة لم يتوقف عند تدويل العلم والتكنولوجيا ، إنما شمل مشكلات كبرى مثل النمو السكاني والتلوث البيئي وانعدام المساواة الاقتصادية ومشكلة التخلف والتبعية كل ذلك وغيره تم تدويله وعولمته ، إلا أن هذا التدويل والعولمة لم يخلقا أي حلول للمشاكل التي تم تدويلها ويعود ذلك إلى محاولة الأقوى

فرض كل تصوراته على الآخرين فالبطالة كل يوم في اتساع وتزايد كذلك معدل التضخم والجريمة والتلوث ومشكلات الفقر والتخلف وصارت النتيجة تدويل الأزمات وعولمتها وفشل تدويل الحلول .

هذا ما جعل كثيراً من المفكرين وخاصة مفكرو العالم الثالث ينظرون إلى العولمة لا على أنها ظاهر فقهية تختلف من حولها الآراء ،إنما هي مسألة صراع ومقاومة دفاعاً عن الاستقلال ضد التبعية وأنها شكل من أشكال الاستعمار الجديد [٨].

لذا فإنه من عالم العولمة الذي يتسم بانكماش الزمن وانكماش المكان واختفاء الحدود ونشر المساواة العالمية على نطاق غير مسبوق وبسرعة غير مسبوقة.

العولمة مظهر من مظاهر ثقافة الغالب الذي يعمل على فرض ثقافته على المنهزم الذي هو بدوره مولع بتقليد الغالب[٩]، نتيجة الشعور بالتميز والتفوق عند الطرف الأول ، والشعور بالانهزامية والدونية عند الطرف الثاني ، الذي ينظر إلى الغالب نظرة انبهار ، إن العرب والمسلمين في العصر الحديث وجدوا أنفسهم بعد هذا التآكل الذي منيت به النظرة الصحيحة للإسلام أمام بحر عصر المعلوماتية والاستعمار التقني وإزاء النادي العالمي الذي تحكمه ثقافة (الإغراق) و(المجتمع المدني) الرامي إلى سلخ الخصوصيات المحصنة بالأسوار الكونكريتيه وتجاوز الحدود والحواجز طبيعية كانت أم اصطناعية في ثورة حقيقية على الوجدان والسلوك والأيدلوجيات المحلية ، فالقيم يتم غرسها من قبل وسائل الإعلام حيث يقوم الإعلام ببيع الإثارة والمثير وكسر المعايير الاجتماعية القائمة ، فالإثارة سلعة رائجة ، و الأبطال هم الذين يبثون صناعات جديدة والذين لديهم الحلم ومتعة الإبداع والحافز النفسي لبناء مملكة اقتصادية [١٠] ، هذا الإعلام هو الذي جعل أسلوب الحياة

السائدة في كاليفورنيا يغزوا العالم [١١]. والعولمة عامل أساسي في سيطرة المستعمر وبقائه في البلاد المستعمرة ، فلم نستعمر لأسباب اقتصادية أو سياسية أو عسكرية وإنما نستعمر لأننا فينا قابلية للاستعمار كما ذكر ذلك المفكر الإسلامي مالك بن نبي . أي أن الإنهزاميه والشعور بالدونية هما اللذان سهلا استعمار البلاد الإسلامية وتتعدى العولمة في تأثيراتها موت الدولة وتحكم عليها بالزوال إلى تدمير البشر وتخريب الطبيعة ، لأن إزاحة السياسة من قبل السوق تنتهي باحتواء السوق للدولة ، والدول التي تتخلى من القطاع العام وعن تقديم الخدمات إنما تساعد في تسليم حق السيادة والاستقلال إلى رأس المال وتفقد نفسها الصلاحيات المطلقة فالخيار بكل بساطة هو :إما أن نتجاوز حدود الرأسمالية ، من خلال فك الارتباط مع النظام العالمي السائد ،وإما أن يقضي التوسع الرأسمالي على أمننا فيذوبها في عملية التأحيد السلعي، ويلغي شخصيتها وهويتها، وينهي استقلالية مجتمعاتنا ،فيخضعها لمقتضيات إعادة انتشار حكم رأس المال المهيمن على صعيد عالمي[١٢] كما أنها تمثل خطراً على بقاء ووجود واستمرار الشعوب والأمم الضعيفة ، لأن الشعوب والأمم لا يمكن أن تختفي بسبب الإبادة الجسدية مهما بلغت قوة العنف والتصفية ، إنما تنتهي الشعوب والأمم حينما تتخلى عن عناصر شخصيتها من دين ولغة وتاريخ وعادات وتقاليد وتعتنق عناصر شخصية أمة أخرى ، لأن هذه العناصر المكونة للشخصية هي مقومات البقاء والاستمرار والتميز. مما يحتم على الشعوب والأمم التي تريد الحفاظ على وجودها واستمرارها أن تحرص على عناصر شخصيتها التي تميزها عن الأمم الأخرى وأن تعمل على إبراز جوانب الاختلاف والافتراق والتميز، ولا تعمل على إبراز جوانب الاتفاق والالتقاء والتوحد الذي يحصل في أمتنا العربية الإسلامية في أزمتها الحاضرة وهي تحاول إبراز جوانب

الاتفاق والالتقاء مع الحضارة والثقافة الغربية ، وصار كل همنا هو البحث عن قول أو فكرة أو نظرية عند الغربيين توافق قولاً أو فكرة أو نظرية عندنا ، فإذا وجدنا ذلك انطلقنا مهللين لهذا الاكتشاف العظيم ، وخير مثال لذالك نظرية (النظم للجرجاني) التي توافق النقد الغربي معها وربما تأثر بها و(علم الاجتماع) لابن خلدون ومثل ذلك كثير ،فإذا وجدنا هذا التوافق حكمنا لعملنا هذا ببعض القيمة لأن الدليل على صحتها قد جاء من الوحي الغربي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بينما قد نتشكك بالمسلمات والبديهيات النقلية والعقلية إذا جاء الوحي الغربي بخلافها، مثل نظرية (النشوْ والارتقاء) ذات الحلقة والطبقات المفقودة التي هي عند أهلها نظرية قبل أن يعترف المختبري الذي حمض الجينات بأنه زور ٨٠% ..حتى يثبت أن اصل الكائنات واحد. بينما درسناها في مناهجنا على أنها حقيقة الحقائق، مع أنها تتصادم جذرياً مع تصوراتنا ونظرتنا الإسلامية كما في قوله تعالى:"لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم"[١٣] وهذه النظرية نتاج ثقافة غير ثقافتنا ومجتمع غير مجتمعنا ، وقل مثل ذلك في تقبلنا لنظريات الإلحاد والوجودية والفرويدية وغيرها. هذا المنهج لو نجح – لا سمح الله- سيؤدي إلى ذوبان هذه الأمة وتلاشيها في الآخر ن واختفائها من الوجود. كما حصل لكثير من الشعوب والأمم التي ذابت في الحضارة والثقافة الإسلامية في البلاد المفتوحة ، وكما حصل للمسلمين في الأندلس وغيرها من البلدان الأوربية والأفريقية والأسيوية . فلا يمكن القول : إن هذه الشعوب قد أبيدت جسدياً ـــ إن حصل ـــ إنما انتهت حينما تخلت عن عناصر شخصيتها التي هي مقومات وجودها كأمة متميزة محترمة .

الحديث عن خصوصية الثقافة ومقومات الشخصية لا يعني التقوقع والانغلاق لأن ذلك سيؤدي إلى الضعف والانهزام وستكون النتيجة من جراء هذا

التعامل واحدة مثله مثل الذوبان والاندماج . لكن الذي نعنيه هو التعامل الواعي والإيجابي مع معطيات العولمة بحيث نتعامل معها تعامل انتقائي يقوم على الاستفادة من الإيجابي المفيد وترك السلبي الضار لأن تأكيد هوية الانتماء يتطلب ربط الموروث الثقافي مع المستجدات الحضارية للانتقال بالربط والطور التناسقي في توازٍ مع طغيان الحضارة والتواصل الثقافي للنتاجات التأريخية المتأثرة بالهوية الذاتية والجماعية[١٤] ، لكن الذي حصل في العالم العربي والإسلامي هو العكس تماماً ، فلم نأخذ من الحضارة الغربية إلا الضار من العادات والتقاليد الاجتماعية كالاختلاط والعري والسفور وطريقة المأكل والملبس والتعصب لهذه النظرية أو تلك التي أتتنا من الغالب المنتصر وسببت لنا التبعية والضعف ليصدق فينا قول الله – سبحانه وتعالى – " أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً " [١٥] ، وقول النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – :(لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ورآهم . قالوا :اليهود والنصارى ؟ قال : فمن؟[١٦] ولم نأخذ منهم النافع المفيد من وسائل الصناعة والتقنية التي سنزداد بها قوة وتدفع عنا خطر الهيمنة والتبعية لأن الأخذ بتقنيات العولمة أمر ضروري للدفاع عن البقاء وضمان النجاعة الاقتصادية والثقافية ، لكن الاستفادة من هذه التقنيات غير ممكنة دون أن تقف وراءها استراتيجية ذاتية تحد من استخداماتها وتوظيفها من قبل القوي القوى الكبرى[١٧] وهذا يعني ما حصل في اليابان لأن العولمة قد استعملت وسائل جديدة للسيطرة أطلق عليها (سمير أمين) اسم الاحتكارات الخمسة وهي : (احتكار التكنولوجيا – احتكار المؤسسات المالية ــ احتكار وسائل الإعلام ــ احتكار القرار ــ احتكار الوسائل العسكرية) وهذه الاحتكارات تعمل معاً وتعطي مضموناً لقانون القيمة المعولمة [١٨] ، وقد رفضت أمم وشعوب أقل منا حضارة

ومؤهلات اقتصادية وثقافية وسياسية واجتماعية هذه التبعية وأصرت على أن يكون التعامل مع الحضارة الغربية من منظور محلي خاص فاستطاعت النهوض والإمساك بقوانين العلم والحضارة وصارت من عمالقة الحضارة والاقتصاد.مما يؤكد أن العولمة ليست حتمية كما يردد البعض ، إنما حصل هذه القناعة عندهم من الخلط بين العولمة كثقافة وفكر وأيدلوجيا ، وبين أدوات ووسائل العولمة كالإنترنت والفضائيات والموبايل وغيرها.

اليابان التي تعد حضارتها الحديثة مستوردة مثلنا. ولا تقارن ثقافتها من عقيدة تنص على أن الإمبراطور هو الإله أو ابن الإله وكان ذلك مكتوباً بالدستور الياباني حتى العام ١٩٤٥م تاريخ دخول القوات الأمريكية اليابان فألغت هذه المادة من الدستور ولكن هذا ظل راسخاً في قلوب اليابانيين إلى اليوم ، ولغة في قمة التخلف فحروفها مكونة من خمس أربعات (٤٤٤٤٤) حرفاً بثقافتنا،ولا تقارن ثرواتها بثرواتنا فليس لها من الثروات إلاّ الفحم . ومساحتها(٢٠٠٠٠٠) كيلومتر مربع تساوي مساحة قطر عربي صغير كسوريا ، نصفها براكين ونصفها أمطار وسكانها يقارب سكان الوطن العربي كله ومع ذلك لا تعاني انفجارا سكانياً مثلنا، ولكنها أصرت على تعاملها مع الحضارة الغربية على (اليبننة) . حتى إن الإمبراطور الياباتي بعد الحرب العالمية الثانية أرسل طلاباً إلى أمريكا والاتحاد السوفيتي ،ولما عادوا وأمسكوا بالإدارات حصل الخلاف بينهم أي النظاميين أفضل .فقال الذين درسوا في أمريكا : إن النظام الرأسمالي أفضل !، وقال الذين درسوا في الاتحاد السوفيتي :إن النظام الاشتراكي أفضل! ،فقال الإمبراطور : أنا أرسلتكم لخدمة اليابان !!!لا لخدمة أمريكا والاتحاد السوفيتي ، ثم أمر بهم فسحقوا بالقطارات . ثم أرسل طلاباً آخرين فعادوا لخدمة اليابان . وقل مثل ذلك على الصين وغيرها .ومن الخصوصية الثقافية والانتقائية من ثقافة

الآخر صارت اليابان في قمة العالم المتطور في جميع المجالات بينما نقبع في العالم العربي والإسلامي ذي الثقافة الراقية والحضارة العريقة والثروات الهائلة والموقع الإستراتيجي في ذيل القائمة في كل شيء إلا في الرقص وهز الوسط مع العلم أن التعليم بدء فيها بعد مصر بمائة عام

بينما حصل العكس عندنا تماماً فقد أصبنا بالانهزامية فبادرنا إلى محاربة ثقافتنا وهويتنا وعناصر شخصيتنا واتهمناها بكل نقيصة ، واتهمنا العقل الذي يقف وراءها التي هي مقومات وجودنا وعوامل استمرارنا وسر بقائنا وأساس نهضتنا وسبب قوتنا ، هذه الثقافة من دين ولغة وقيم وأخلاق وتأريخ وعادات وتقاليد التي – لا سمح الله – لو نجحت العولمة في سعيها إلى التجنيس الثقافي، لتحولت ثقافات الشعوب إلى مهرجانات وطنية وعقائدها إلى مجرد طقوس ، ومآثر تراثها إلى وثائق الأرشيف ومقتنيات المتاحف[١٩]هذه الثقافة الأشياء التي كان ينبغي أن نصدرها للغرب مما تسبب في تراجعنا وضعفنا لأن أكثر ما نعانيه اليوم من تغرب حضاري أننا أوجدنا أبواباً عديدة تدخل منها الثقافة الغربية لتغزو ثقافتنا ،وهي تحمل في طياتها قيما جديدة وأحيانا معاول هدم وهي تحاول الحلول محل القيم الموجودة في مجتمعنا التي هي من صنعنا وتاريخنا بادعاء مواكبة التطور . مع أن التطور – لا يلغي الجذور والقواعد التي تنبع من البيئة الحاضنة لهذه الثقافة، وإلا لأخل التوازن بكل تخريجاته وما يستحدثه من تفريط في الشخصية وفقدان الهوية ومن ثم التبعية والدوران في فلك من يمتلك مقومات التطور فجميعنا يعرف أن لكل بيئة في هذا الكون تراثاً حضارياً ضخما يشكل جزءاً من الثقافة المتوازنة المكونة للشخصية والعنوان [٢٠]. كان المفروض من علمائنا ومثقفينا وقد رأوا المستعمر حريصاً على صبغ مجتمعنا بالصبغة الغربية. فلم يكن الاستعمار الحدث استعماراً عسكريا فقط إنما كان استعمارا

ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا، بدليل أنه أحضر معه وسائل نشر هذه الثقافة من مطابع ومدارس ومناهج ، وفرنسة الجزائر ليست عنا ببعيد. أن يحرصوا على إبراز جوانب تفوقنا وتميزنا وافتراقنا عنه بدل النظر بعين مقعرة إلى ثقافتنا وحضارتنا ومجتمعنا وعقليتنا وبعين محدبة إلى ثقافتهم وحضارتهم ومجتمعهم وعقليتهم. وبدل البحث عن جوانب الالتقاء والتوافق مع الآخر وما يشكله ذلك من خطورة على وجودنا واستمرارنا في ظل سعي الغرب للهيمنة الذي استعمل العولمة في كثير من الأحيان كوسيلة للسيطرة والاستعمار وخدمة المصالح الغربية وهدفها ومنطقها وإنتاجها)([٢١]) وقد وفرت الثقافة العربية الإسلامية في مراحل ازدهارها فرصا ملائمة لنمو تربية عربية ناجحة [٢٢] لأن الإسلام وثقافته كانا سبب نهوضنا وتقدمنا وتفوقنا في مختلف جوانب الحياة حتى تخلينا عنه في العصر الحديث وجرينا وراء الثقافات الغربية، فوصلنا إلى ما وصلنا إليه وقد سئل الشيخ /محمد الغزالي ـ رحمه الله تعالى – : سؤالاً هو : لماذا تقدم الغرب وتأخر المسلمون ؟ فقال : لأنهم تركوا وتركنا . تركوا دينهم المحرف الذي وقف ضد العلم ويرى أن سبب خروج آدم من الجنة هو أكله من شجرة العلم، وكانت الكنيسة تحكم بالإعدام على كل من جاء بنظرية جديدة حتى في العلوم الطبيعية كما حصل للافوزية و جاليليو وغيرهما، وتركنا ديننا الذي يرى أن سبب خروج آدم من الجنة هو الجهل وأول كلمة نزلت من القرآن الكريم (اقرأ) هي دعوة للعلم لأن القراءة هي وسيلته الأولى.([٢٣]) وقدم المسلمون الكثير من النظريات في العلوم الإنسانية والطبيعية وكانت أساس الحضارة الغربية وتطورها مما يجعل الحضارة الغربية وريثه للإسلام، كما يؤكد الباحثان ميوسيغ وألن . وأهم هذه المساهمات هي إنشاء التعليم العالي بصورته المعروفة حيث كان المسلمون قد أنشأوا بيت الحكمة في القرن التاسع كأول جامعة إسلامية قبل

ظهور أول جامعة غربية بثلاثمائة عام [٢٤].

مع ما تحمله هذه المرحلة التاريخية من إيجابيات في إنما حركة الإسلام وتطورها .. فإن الخطر المحدق بها قد يكون في أشد حالاته حيث لم يسبق أن واجه الإسلام مثل هذا التحدي الجديد في أسوأ الحقب التاريخية للمسلمين بعد أن عج العالم بالتناقض والتنافس غير البريء [٢٥] مما يحمل المسلمين كفلين من المسؤولية، لأن الحقائق تؤكد أننا لم ننهض إلا مرة واحدة حينما اعتنقنا الإسلام وطبقناه، وأننا لن ننهض مرة أخرى إلا إذا عدنا لسبب عزنا وهدايتنا (والمجرب لا يجرب) لأننا قوم أعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله ونحن قوم هدانا الله بالقرآن فمهما ابتغينا الهداية بغيره أذلنا لله. وتهنا لمدة قرن من الزمن ولهثنا وراء الشرق والغرب منذ سقوط الخلافة العثمانية الإسلامية وفشلنا في تحقيق أي تقدم دليل قاطع على صحة هذه النظرة .

بين العالمية والعولمة

يحاول البعض تصوير ظاهرة العولمة على أنها مرادف للعالمية إلا أن الحقيقة تصدح لغير ذلك فثمة مسافة شاسعة بين المفهومين هي ذاتها المسافة الفاصلة بين تثاقف الحضارات وبين إلغاء بعضها للآخر .

إن العالمية فتح جديد يعمل على تقارب الثقافات والشعوب في ظل السلام والعدل دون محاولة لفرض مادة معينة على الآخرين " لا إكراه في الدين"[٢٦]. " من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر "[٢٧] .

كيف نفكر بالعولمة

المؤسف أن كثيراً ممن حاولوا مناقشة العولمة ورؤيتها أصدروا في ذلك الأبحاث وألقوا المحاضرات وعقدوا الندوات على أهميتها، والجهد المبذول فيها، وقعوا في فخ التفكير بعقل الآخر والدوران حول معصرته بنفس

المفاهيم والتعريفات والمفردات وأدوات البحث وشكلت نواتج فكرية أكثر منها نواتج عقلانية أو معرفية .

الخشية أن يتعولم المثقفون قبل أن تتعولم الأمة فيمارسون بحقها خيانة ثقافية من يجعل الجسد العربي والإسلامي جسداً فاقداً للمناعة فيروساته أمصاله [٢٨] .إن علينا أن نفكر بالعولمة انطلاقا من قواعدنا المعرفية وذاتيتنا الثقافية ومكونات حياتنا الإنسانية " يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألاَّ تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى "[٢٩]

عند النظر بوجهة واقعية نستطيع أن نتبين أن هلع البعض من العولمة هو نتاج طبيعي لما تعيشه الأمة من هجمة شرسة من قبل قوى عظمى استخدمت جميع المنابر الدولية لخدمة أغراضها وليس آخرها قرار مجلس الأمن الخاص بقضية دار فور الذي استثنى المواطن الأمريكي من المثول أمام محكمة الجناية الدولية

إننا نؤكد أن العولمة واقع لا مفر من التعاون معه ومع ذلك نؤكد أن لنا خصوصياتنا التي نحملها والتي هي أساس تميزنا وعلى عاتقنا تقع مسؤولية العيش في ظل عولمة تفرض قيوداً وتمنح فرصاً وخصوصية تحفظ وجوداً وتصون كرامة .

إن خطوتنا الأولى هو أن نفكر بالعولمة بعمق ورشد وأن نتحرك وفق الرؤية الصوابية، وعلينا أن نعلم مدى العلاقة الشديدة الارتباط بين منظومة الثقافة ومنظومة التكنولوجيا بكل أبعادها وضرورة توطينها في أرضنا استفادة لأنفسنا ومجاراة لعصرنا .

وإن علينا أن نعمل مع كل الذين يؤمنون بأحقية الأمم والشعوب في الحفاظ على موروثاتها وخصوصياتها لتبقى قبل أن تذوب . علماً أنه لا زال الوقت

ممكناً للحياة ولكن بفضل انقلاب كبير لا زال سادة فوضانا المؤقتة لا يتحدثون سوى عن تكتفنا أي عن استسلامنا لانحرافات عالم من دون إنسان وبشر بدون مشاريع أي حين لا نطلب النهضة أو مجرد بقاء الإنسانية على قيد الحياة فإننا لا نحتاج عملية التكيف مع قدر الموت هذا ولكن قطيعة جذرية معه .في مقابل الواقعية القاتلة والقدرية لن ينجوا سوى عن طريق نضالية الأمل[٣٠] .

هذه الصورة القاتمة التي ستفرزها العولمة في عالمنا الإسلامي لن يوقفها إلا قوة روحية عالمية ،- وهي قوة الإسلام التي تجذرت آثاره العملية، من خلال الممارسة في أعماق المجتمع الإسلامي عبر قرون طويلة ، كما أن الله تعالى قد تكفل بحفظ دينه، فلا يكاد يمر قرن من الزمان إلا وفي طيات سنيه جهابذة من العلماء المصلحين يقومون بدورهم في تجديد الدين . ولأن الجسد الإسلامي كالجسد الآدمي ، فيه من المناعة الذاتية ، ما يقاوم به الفيروسات الوافدة سواءً كانت في أشكال عقدية أو فكرية أو حركية ، ثم لا يلبث أن يلفظها ويقضي عليها .

إن توفر تلك المقومات جميعاً ، وغيرها التي لم أذكرها هنا كفيلة إذا رجع المسلمون إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأن نواصل جيل الحاضر بماضيه ونمده إلى مستقبله ، وبالتالي فإن العولمة ستخفق حتماً في فك الارتباط بين المجتمع الإسلامي المعاصر وبين تاريخه على كافة المستويات العقدية والثقافية والسلوكية.[٣١] .

مظاهر العولمة

تتعدد مظاهر العولمة الموجودة اليوم على المستوى العالمي وبما أننا نقدم بحثاً مقتضباً نشير إلى هذه المظاهر بنوع من الإيجاز فمثلاً تم عولمة الإعلام والمعلومات والاتصالات عبر الثورة الهائلة التي حدثت في هذه المجالات

التي أدت إلى انهمار إعلامي معلوماتي عبر حدود الدول باستخدام التكنولوجيا الحديثة لوسائل الاتصالات والمواصلات التي لم تعد الدول بقادرة على حجبه عن أبنائها وهذا ما جعل الدكتور بطرس غالي الأمين العام للأمم المتحدة السابق يعتبر أن شبكة (C.N.N) هي العضو السادس عشر في مجلس الأمن أما في مجال الاقتصاد فالعولمة قد شملت رأس المال وحركت تدفق السرعة والخدمات وإبرام الاتفاقيات الدولية لهذا الغرض وصارت الشركات المتعددة الجنسيات ذات دور بارز في توجيه المسار العالمي السياسي والاقتصادي وهو ما أدى بدوره إلى عولمة عمليات الإنتاج والتسويق . إن العولمة قد شملت قصات الشعر والموضات والأزياء والرياضة ووجبات الطعام .

لقد أصبحت المرأة الأمريكية وجسدها نمطاً معولماً تحلم به الفتيات والنساء عبر العالم كما تم عولمة الشر، فازدادت عولمة الجريمة وغسيل الأموال واغتصاب النساء وأفلام الجنس .كما أن الإرهاب والتطرف قد تم عولمته وانتقل عبر القارات وصار أكثر قوة، وغدا العالم أكثر خوفاً ورعباً وغذيت الروح اليمنية المتطرفة ليس في الشرق الأوسط فحسب أو العالم الثالث ، إنما شمل العالم المتقدم نفسه ومن هنا لا عجب أن يحصل (روس بيد) ذو النزعة القومية التسلطية والروح العنصرية على ١٩% من أصوات الناخبين حينما رشح نفسه في أول مرة في الانتخابات الرئاسية الأمريكية عام ١٩٩٢م ، كما حصل على نسب مشابهة كلّ من واعظ البحث القومي الفرنسي (لوبين) ، واليميني المتطرف النمساوي (يورغ هايدر) [٣٢] .

إن من مظاهر العولمة تحول المنظمات الدولية إلى مؤسسات يمارس فيها الأقوى عمليات الاغتصاب السياسي والثقافي وحماية بعض ألوان العنصرية المدللة (إسرائيل) وجميع أنواع عقود الإذعان ومصادرة الإرادة وفرض

الرأي واستخدام حق النقض [٣٣] . حتى عدا البعض مجلس الأمن (كونجرس) ثانياً للولايات المتحدة .

مخاطر العولمة

مخاطر العولمة متعددة فهي في مجال الاقتصاد تجعل من الضعيف ضعيفاً ومن القوي قوياً فكل يوم يزداد فيه غول الاقتصاد وتزداد مشاكل الفقر ويتكاثر أعداد الفقراء الذين يموتون جوعاً ، أما في المجال الثقافي فإن أعظم خطر تشكله العولمة يتمثل في ضرب المقومات المعنوية للأمم المغلوبة على أمرها والضعيفة وتمضي في اتجاه طمس القيم والمبادئ التي تشكل شخصيتها كشعوب وأمم ، إن أخطر إفرازات العولمة هو أن تعتبر الليبرالية في ظلها نظاماً كونياً لنزعات الإنسان الفطرية ويلبي ميولاته الطبيعية [٣٤]. وهذا ما جعل صاحب أطروحة نهاية التاريخ يضع نظريته على أساس أن الليبرالية هي الانتصار الأعظم الأخير في تاريخ البشرية- وهذا ما دفع دول الغرب ذات الأطماع التسلطية إلى محاولة اختصار القرون والتاريخ والقارات والحضارات وتحولها جميعاً إلى جسد حضاري واحد هو الحاضر الغربي والأمريكي على وجه الدقة ، لقد تنبه المفكر وعالم الاجتماع السويسري (جوب زيغلر) إلى ذلك فأطلق صرخته المدوية بأن الليبرالية اليوم هي في أشد صور التطرف وهذا يعني أننا أمام غول يريد إلغاء كل الخصوصيات والثنائيات الصالحة إلا أنه وكما يقال أن اللعب بالنار لا يجعل النار لعبة ، وكثيراً من النيات الحسنة قد تقود إلى الجحيم ، بل إن أمريكا نفسها كما تقول الباحثة ثناء فؤاد عبد الله: إن أمريكا وإن كانت المستفيد الأكبر من العولمة اليوم فإنها قد لا تستطيع النجاة من مخاطرها غداً، ذلك لأن هذه الظاهرة صارت اليوم تنمو خارج سيطرة القانون الأمريكي، والقانون الدولي على السواء، وعندها فإن فقراء أمريكا اقتصادياً ومعنوياً سينظمون إلى

فقراء العالم في شكاواهم المريرة.

تزداد مخاطر العولمة علينا نحن كعرب ومسلمين لأن ما نمتلكه من مناهج تعليمية وتربوية لا تمنحنا الكثير من الخبرة والقدرة على التعامل مع حركة التغيير الاجتماعي المتسارع ، الذي يتجاوز حركة الأجيال بما يخلق دائماً تناقضات بين الأصالة والمعاصرة، وهي أحد أهم بؤر التوتر الاجتماعي، هذه العقدة الوراثية لا تؤهلنا لمجابهة المتغيرات العلمية مع إن التخلف عن مواكبتها يحولها إلى مشكلات بالغة التعقيد هكذا تتعولم الأزمات بصورة تتعدى عولمة المعرفة وعولمة الخطط والحلول الناجحة[٣٥] ، لذا تصبح العولمة مقلقة لأنها ذات وجه واحد تمثل هيمنة ثقافة واحدة ووحيدة مهما كانت مغرية ومسنودة بالنجاحات المادية والمعنوية وقيامها بتهميش الثقافات الأخرى في العالم [٣٦] ، والمشكلة تتمثل في أن هذه الثقافة الأحادية لاتقبل النقاش إلا مع ذاتها هي ثقافة استهلاكية تخدم أطماعاً توسعية ليس من غرضها أو أهدافها تطوير العالم أو بث النور في روعه ، إنها ثقافة تقود إلى الفوضى وتجعل المسير القادم في مهب الريح وعلى شفا جرف هار وهذه الثقافة الاستهلاكية جاءت عبر دراسة طويلة ،لقد كتب سابقاً مؤسس الصهيونية (هرتزل) منذ قرون فقال: سنؤسس قلعة متقدمة للحضارة الغربية في مواجهة الهمجية الشرقية وعلى دربه جاء هنتنجتون منظر البنتاغون ليضع الحضارة اليهودية النصرانية في مقابل الإسلام والكنفوشيسية[٣٧] ، هذه الثقافة السطحية التسلطية هي التي قالت لنا في مناهجنا الدراسية وموسوعاتنا :إن المطبعة كانت من اختراع (غونتبرغ)في حين أن الصينيين كانوا يستخدمونها منذ خمسة عشر قرناً وهي التي قالت لنا :إن (هارفي) هو مكتشف الدورة الدموية في القرن التاسع عشر ،على الرغم من إن (ابن النفيس) وهو طبيب عربي مسلم قد قام بتوصيفها قبله بأربعمائة سنة وغني

عن القول نسبة علم الاجتماع إلى (جون دوي) مع عن ابن خلدون قد سبقه بقرون ، هناك ثقافة أخرى يعتقدها أرباب العولمة وأنصارهم وهي ثقافة تقوم على تبرير الجريمة في حق الإنسانية ،ففي قانا يقول الصحفي اليهودي آري شافيت : لقد قتلنا مائة وسبعين شخصاً الكثير منهم نساء وشيوخاً وقتلنا بنتاً في الثانية من عمرها، لقد حرصنا على أن نمنح الموت عن بعد لقد قتلناهم ــ وهنا محل السر ــ لأن الهوة التي تتسع أكثر فأكثر هي بين الطابع المقدس الذي نعطيه لحياتنا الخاصة وبين الذي نعترف به لحياة الآخرين والذي يضيق أكثر فأكثر (٣٨) .

عبر لستر ثورو عن الثقافة التي يتم اليوم عولمتها وأوضح ذلك بقوله : عملياً يتم نقل التراث والثقافة والقيم من كبار السن إلى صغار السن والشباب، يقولون لهم ماذا يجب أن يعتقدوا أو كيف يفعلون ذلك، أي أن الثقافة هي تجسيد حقيقي لأنماط التفكير والمعتقدات والسلوك وتحتوي على مضمون الذاكرة الشعبية القومية وتاريخها الإنساني لكن ما يخيفنا بشأن الثقافة الإلكترونية أن كل ما فيها للبيع والقفز على مضامين الثقافة للأجيال والتوجه مباشرة إلى الصغار والشباب وبالمقارنة مع ثقافة الكبار نجد أن الثقافة الإلكترونية لا تملك أي قيمة خاصة يمكن أن تجمعها أو تشد بعضها إلى بعض هذه الثقافة تنسج أي شيء يريد أن يبيعه أو يشتريه الشباب إنها ثقافة اقتصادية وأرباح بدلاً من ثقافة قيم أخلاق وضمائر وفق هذا الإحساس والشعور أنها تختلف كلياً عما يريده الكثير من الناس إضافة إلى أنها مخربة (٣٩) .من هنا يتبين أن للعولمة تأثيرها الظاهر في الهوية الثقافية وأن هذا التأثير في الواقع الحالي هو تأثير غير مرغوب فيه، لأنه يعمل على محو خصوصياتنا وتميزنا، فضلاً عن آثارها المدمرة في اقتصادنا وهو اقتصاد ناشئ ومستغل لصالح الغير إنه لمن المؤسف حقاً أن تتحول النعمة إلى نقمة

وأن يتحول التقدم التكنولوجي الذي من المفترض أنه يوفر فرصة رفاهية للإنسانية جمعا، إلا أنه تحول إلى أداة للقهر ولم تعد الآلة محايدة بقدر ما أصبحت تحمل معها قيمها ومؤثراتها الأيدلوجية ذات المنشئ ، وهذا ما أشار إليه (لويس ممفورد) من أن الإنسان معرض دائماً لأن يعتبر شيئاً ما مرغوب فيه لمجرد أنه أصبح ممكناً .

الوجه المشرق للعولمة

يقول البعض أننا لا نرى إلا بعدسة سوداء إلى العولمة ولا نقرأ إلا جانبها السيئ وأثرها غير الإيجابي بالرغم من أنها ظاهرة إنسانية ، وأن أي ظاهرة يرافقها حسن وقبيح لكن غرضها يبقى نبيلاً في وحدة العالم ، إننا لا ننكر أن لهذه العولمة وجهاً مشرقاً إلا أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يلغي الوجه الآخر وصارت العولمة بالنسبة لنا كعالم ثالث في مقابل اللاعبين الكبار إثمها أكبر من نفعها. لأنها غير قادرة على تقديم نموذج يضفي هوية مميزة على أي مجتمع يعتنقها عقيدة وتطبيقاً ،لذالك فإن دورها في حياة المسلمين هو دورٌ تهميش ، يهشم مقوماتها الإسلامية ويحت أصالتها الإنمائية، وينتهي بها إلى فراغ اللاشيء(٤٠).

إن أهم حسنات العولمة أن واقعها خلق فرصة جديدة للتعرف على العالم عن قرب والاتصال وثقافات جديدة ومتنوعة حيث ينضاف بعد آخر للوعي الاجتماعي غاية في الأهمية ، كما أنها تفسح المجال للتسامح الإنساني يعطي الأخر حق الوجود والمنافسة ، كما أنها تكسب الوعي الاجتماعي قدرةً وذكاء أكبر مما سبق لمحاجة بنى سلطوية جاثمة تاريخيا ، ومسألة أطر مرجعيات قائمة ، فليس هناك ثمة شيء من وضع البشر معطى مرة واحدة وإلى الأبد، إلا أن هذه الحسنات لا يمكنها أن تكون حسنات للعولمة إلا إذا كانت العولمة ليست أيدلوجياً محددة ولا نظرية ولا اتجاه سياسي، كما أن من حسناتها تولد

هذه الثورة العلمية والمعلوماتية الجديدة التي هي أهم معالم اللحظة الراهنة وهي القوة الأساسية وهي بذلك ستفتح للبشرية آفاقاً معرفية وثقافية لا متناهية، كما أنه يمكن للدول النامية الاستفادة من تدفق آلات الإنتاج والسلع والخدمات عبر اقتصادياتها المفتوحة على بعضها البعض ربما يحقق هذا نوعاً من النمو والرخاء والرفاهية في أرجاء المعمورة .

العولمة المرغوب فيها

إننا لن نستطيع إيقاف عجلة تقدم العولمة ، إنها تفاجئنا في كل مواقعنا هذه حقيقة نعترف ونؤمن بها لكن ما نريد تأكيده الآن هو أن علينا أن نعمل على محاولة ترشيد العولمة ، وذلك بالعمل والتواصل مع كل الذين يدركون مثلنا أن قيم العولمة الحالية لن تخلق عالماً مستقراً وآمناً ولن تجعل منه اكثر رفاهية ، إن العولمة المرغوب فيها هي التي تحترم ثقافات المجتمعات وتعلي من شأن القيم والمبادئ الأخلاقية وتحارب الرذيلة والجريمة ،وتولي اهتماماً حقيقياً لقضايا البيئة وحقوق الإنسان وتعالج مشاكل الفقر والبطالة ، وتضع الحلول الواقعية للاختلالات الاجتماعية الأخرى ، إن عولمة تحمل هذه المزايا هي أحق بأن تبقى لأنها مما ينفع الناس فيمكث في الأرض، وهي لاشك مطلب نبيل لشعوب وجماهير تخرج كل يوم ليس في بلدان العالم الثالث فحسب بل في العالم المتقدم ذاته مطالبة بالوقوف ضد العولمة الموجودة ، إن الاعتقاد بأن كل الجهود لن تجدي نفعاً وأن الكارثة قادمة لا محالة خاطئ ، بكل تكيد أنه يشجع على تناسي المشكلة وعلى الوقوف بأيدٍ مغلولة حيالها لا سيما أن الراحة تكمن في التقاعس وانتظار ضياع البشرية ، إننا لا نعتقد بأن هناك كارثة ستحدث في المعمورة تنهي ما بها من حياة وما تنطوي عليها هذه الحياة من مشكلات في البشرية فإن لحياة ستستمر بكل تأكيد ، إن المشكلة هاهنا تدور فقط حول الكيفية وحول نسبة أولئك الذين سيعيشون

حياة مرفهة وأولئك الذين سيعيشون حياة الفاقة والحرمان. إنه ليس من المنطق أو العقل أو الحكمة إقفال النوافذ وتناسي المشكلة والإعصار القوي والنوافذ لا بد أن تبقى مشرعة ولكننا بحاجة إلى إيجاد جهاز فلتره في كل نافذة ، كما أننا بحاجة ماسة إلى رص أجهزة الإرسال على أسطح بيوتنا لتصدير مفاهيمنا للآخر وإيجاد موضع قدم لنا في ساحة يقودها اللاعبون المحترفون .

في سبيل المواجهة

ربما يكون قد تكشف لنا مما سبق أن المواجهة ليست خيارا اختياريا، إنما هي ضرورة لا بديل عنها اللهم إلا الرضى بالتبعية والدخول في طائفة الإمعان ، وإعادة إنتاج تخلفنا بأشكال حديثة ، ربما إن أول متطلبات المواجهة هو الوعي ، الواعي بماهية العولمة وحقيقتها خيرها وشرها ، مع أننا نعتقد أنه ليس باستطاعتنا أن نخلق وسائل تكنلوجيه جديدة لمواجهتها ، وذلك نظراً لظروفنا الحالية التي هي ناتج قرون من التخلف والتمزق والانهيار الداخلي ، لكن الشيء الذي يمكن أن نراهن عليه هو الوعي ، تعميق الوعي بالاتجاهات الرأسية والأفقية وتفعيل الحياة الثقافية أمران في غاية الأهمية ، لنبقى أمة تحمل شخصية معنية ، إن هناك تحديات موجهة ضدنا ، ضد (ثقافتنا ، ديننا ، خصوصياتنا ، هويتنا)، إلا أننا يمكن أن نقلب المعادلة ونتحول من التخندق خلف أسوار الدفاع إلى الهجوم ، علينا البحث عن الوسائل الناجحة لتسويق مشروعنا الحضاري بصورة تجعل منه مهوى أفئدة ولا يمكن ذلك ما لم نحقق الأتي.

أولاً : بناء الإنسان .

الإنسان بلا شك هو رصيد الثروة الحقيقية لأي أمة ،وهو حجر الزاوية في أي بناء أو تنمية، وأمتنا ولله الحمد تزخر بقوة بشرية هائلة إلا أن ما يعيبها

أنها ما زالت مادة خام فمعدلات الأمية ما تزال هي الأكثر بين دول العالم .

ثانياً : الاعتماد على الذات .

إن أي أمة تريد وجوداً حراً وكريماً لابد أن تعتمد على ذاتها لبلوغ أهدافها وتحقيق طموحاتها واستغلال جميع مقوماتها المادية وطاقاتها الروحية ، إن الانتماء للذات هو الذي يحقق الخصوصية ويحافظ عليها ويعمل على تنميتها

ثالثاً : التكامل والوحدة .

يكفي لإثبات هذا العنصر قوله تعالى: " ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم " .فقد أثبتت التجارب أنه لا يمكن لقطر عربي أو إسلامي أن ينهض بمفرده،وأنهم لم ينهضوا إلا حينما توحدوا واجتمعوا.

رابعاً : الانتقاء الواعي .

إن عملية الترويج لمفاهيم مثل التفاعل الثقافي والتداخل الحضاري وحوار الحضارات والتبادل الثقافي جميعها ليس لها رصيد من الواقع يؤيدها .وكلما هو لائح في الأفق هو أن ثقافة معينة هي التي تسود ،والمسماة بثقافة المركز العولمي، وأن باقي الثقافات ليس عليها إلا اتباع ثقافة المركز حتى جحر الضَّب الأخير ، كل هذا لغرض حتمية المواجهة بالحفاظ على الخصوصيات الذاتية ، ولا يمكن الحفاظ على هذه الخصوصيات ما لم تتوافر شروط ونقاط معينة ، وبالنسبة لخصوصياتنا فإنه من الواجب إتباع ما يلي للحفاظ عليها .

١) البداية بالأنا قبل الآخر والقريب قبل البعيد والموروث قبل الوافد .

٢) كسر حدة الانبهار بالغرب ومقاومة قوة جذبه ، وذلك برده إلى حدوده الطبيعية والقضاء على أسطورة الثقافة العالمية .

٣) قدرة الأنا على الإبداع والتفاعل مع ماضي الأمة وحاضرها والمؤامة بين ثقافتها وثقافة الأخر ،ولكن ذلك ليس قبل عودة الثقة للأنا بذاتها،

وليس قبل التحرر من الانبهار بالأخر كنقطة جذابة لها وإطار مرجعي لثقافته لا ينبغي لليأس أن يتسرب إلى نفوسنا ،وعلى الذين يرون حتمية العولمة أن يراجعوا التأريخ ليعرفوا أن الشعوب الحية لا يمكن تغييرها،وهذا ما تفخر به جولد مئير رئيسة وزراء الكيان الصهيوني سابقا وجعلها تقول :إن اليهود شعب يستحق الاحترام لأنه حافظ على هويته أربعة عشر قرناً أثناء سيطرة المسلمين ،بينما ذابت شعوبٌ كثيرة في هذه الحقبة كالعمونيين والأشوريين والمؤابيين الذين كانوا يعيشون جنباً إلي جنب مع اليهود لكنهم في النهاية قبلوا بمصيرهم وأصبحوا جزاء من الحضارة التي كانت مهيمنة حينذاك ،ما عدا اليهود حيث كان مصيرهم مختلفا ، فالأمم الأخرى بقيت في أرضها إلاَّ أنها تخلت عن هويتها، بينما اليهود الذين تبعثروا بين الأمم في أرجاء العالم وفقدوا أرضهم بقوا يهوداً، ولم يتخلوا عن أملهم بالعودة إلى بيت المقدس ، ولقد عدنا الآن[٤٣].ويكفي أن اللغة العبرية التي تسمى لغة المقابر لأنها كانت غير موجودة إلاَّ على قبور اليهود في العالم صارت لغة العلم والتعلم في مختلف المراحل العلمية حتى الماجستير والدكتوراه ،وفي مختلف التخصصات حتى الطب والهندسة والأمثلة كثيرة جداً فقد سيطر المسلمون على أسبانيا ثمانمائة سنة، لكن الأسبان خرجوا أكثر قوة واستطاعوا احتلال الأندلس بعد هذه المدة الطويلة والقضاء على أي اثر إسلامي هناك ، وسيطر الروس القياصرة ثم الروس الشيوعيون على الشيشان وغيرها من الجمهوريات الإسلامية في أسيا الوسطى أكثر من أربعمائة سنة وحاولوا بكل الوسائل طمس هويتها الإسلامية ن فجاءت النتيجة عكسية تماماً إذ خرج الشيشانيون أكثر صلابة وتمسكاً بالإسلام

واعتزازاً بدينهم وهويتهم، وتعرض الشعب الجزائري للفرنسة ومحاولة طمس هويته العربية الإسلامية طيلة مائة وثلاثين عاماً فخرج أشد تمسكاً واعتزازاً بدينه ولغته ووطنه وصدح حاديه ولسانه المعبر عنه رئيس جمعية علماء الجزائر الشيخ _عبد الحميد بن باديس) بقوله::

شعب الجزائر مسلمٌ وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب(٤١)

وصارت شعار الجزائريين قبل التحرير وسقط في سبيله مليون ونصف مليون من الشهداء، وظلت شعارهم بعد التحرير وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.الجاليات الإسلامية في الغرب أشد تمسكاً بهويتهم ودينهم من المسلمين الذين يعيشون في البلاد الإسلامية ،وصار دمجهم في هذه المجتمعات مشكلة هذه الدول.

أن الشعوب تعود إلى خصوصياتها ورموزها الأصلية خصوصاً وقت الشدائد والمحن ،ومن نماذجه :

١- تظاهر ألف مواطن من سراييفو عام ١٩٩٤م وهم يلوحون بعلمي السعودية وتركيا بدلاً من أعلام الأمم المتحدة وشمال الأطلسي وهذا يعني توحدهم مع رفاقهم المسلمين .

٢- تظاهر سبعين ألف مواطن في لوس انجلوس وهم يحملون الأعلام المكسيكية ضد قرار أمريكي يحرم المهاجرين غير الشرعيين من مميزات تمنحها الدولة وفي تظاهراتهم هذه لم يحملوا العلم الأمريكي على الرغم من أنهم أمريكيو الجنسية مكسيكيو الانتماء والأصل .

إن القبول بالوضع الحالي للأمة يعني الرضوخ للموت البطيء والكريه في آن واحد وإن شظايا متعددة ستصيب الجسد العربي والإسلامي في حال

الركون إلى وضع يقود إلى الهاوية ، ومعذرة إذا قلت لكم إنها هاوية قد تخطينا حافتها ونحن الآن في أعماقها السحيقة، وكل الشموع حولنا مطفئة ، أما الحبال فمهترئة أو مقطعة ،همهماتنا في القعر ليس لها صدى، إن من أهم الشظايا التي ستصيب هذا الجسد، علماً بأنها شظايا واقعات إذا لم نتقدم نحو الأمام.

١) تستقلص سيادة حكوماتنا على حدودنا ومواردنا بفعل العولمة ومؤسساتها المتعددة الجنسية والمنظمات الدولية المساندة لها وربما تجد بعض هذه الحكومات في هذا الوضع ذريعة لإحكام قبضتها على جماهيرها تحت دعوى الأمن القومي ومواجهة التدخل الأجنبي .

٢) تمنع قلت مواردنا والتي تتآكل باطراد تمنعنا عن إقامة البنى التحتية لطريق المعلومات الفائق السرعة لنعاني من طبقية اتصاليه يدعم في إطارها القائلون بالتفاعل الإيجابي أخذاً وعطاءاً مع مراكز خدمات المعلومات في حين نظل نحن تحت رحمة التلقي السلبي لما تلقيه علينا أقمارهم الصناعية .

٣) تقلص فرص العمل بفعل العولمة أمام أجيالنا سوءاً كانوا كباراً أو صغاراً، وسيزداد نزيف عقولنا عن بعد عبر الإنترنت وهو ما يحدث حالياً بمعدلات متزايدة خاصة بالنسبة إلى مهندسي الكمبيوتر ونظام المعلومات والاتصالات .

٤) عجز مؤسستنا التربوية عن تلبية المطالب المتجددة لسوق العمل بفعل جمود التنظيم وقلة الموارد خاصة أن ميزانية التعليم في ازدياد مستمر بسبب الكلفة العالية لتكنولوجيا التعليم .

٥) تفاقم تبعيتنا الفكرية والإبداعية والتكنولوجية من المعمار وحتى النقد الأدبي ومن مناهج التربية وحتى تعليم البرامج وتطوير برامجنا

التعليمية والترفيهية .

٦) ستخترق إسرائيل سوقنا الثقافية وتستغله في ذلك عبر أساليب التجارة الإلكترونية و الإنترنت . وستتمادى في تشويه ثقافتنا العربية الإسلامية على الإنترنت ، مستغلة في ذلك تفوقها التكنولوجي وشبكة تحالفاتها مع المراكز الأكاديمية والتنظيمات الثقافية والدينية عبر العالم .

٧) سيواجه إنتاجنا الإبداعي صعوبات جمة أمام تسويقه عالمياً تماماً كما يحدث حالياً بالنسبة لإنتاجنا الزراعي والصناعي .

٨) سندفع كلفة باهظة لرسوم الملكية الفكرية ، وسوف يضيق أصحابها الخناق علينا فيما يخص الهندسة العكسية وتعريب برامج الكمبيوتر وترجمة الكتب العلمية .

٩) ستحدث فجوة لغوية حادة تفصل بين لغتنا العربية ولغات العالم المتقدم فجوة في التنظير وفجوة في المعاجم وفجوة في تعليم اللغة وتعلمها ، وفجوة في استخدام اللغة وتوثيقها ، وفجوة في معالجة اللغة وترجمتها آلياً وربما يؤدي ذلك في النهاية إلى انتكاس تعليمنا كسابق عهده مرتداً إلى اللغات الأجنبية .

١٠) ستضمر ثقافتنا أمام جحافل ثقافة العولمة الوافدة وستسلب منا نصوصنا وتراثنا وناتج إبداعنا تحت دعوى مزج الثقافات وحوار الحضارات ، وتكفي الإشارة هنا إلى ما فعلته الشركات الأمريكية في استغلال منتجات الصناعات اليدوية في الدول النامية من أندنوسيا إلى المكسيك جاعلة منها تجارة عالمية لا يتجاوز نصيب الصانع المبدع فيها ١٠%، فلا حماية حتى للملكية الفكرية الجماعية المتعلقة

بروائع التراث الشعبي والتي لم تهتم بها منظمة اليونسكو إلا أخيراً [٤٢] ، الاختراق تقوم على جملة أوهام بهدفها التطبيع مع الهيمنة وتكريس الاستتباع الحضاري .فالعولمة نظام يعمل على إفراغ الهوية الجماعية من كل محتوى ويدفع إلى التفتيت والتثبت ليربط العالم بعالم اللاوطن واللاأمة واللادولة أو يفرقهم في أتون الحرب الأهلية . فالعولمة تكريس الثنائية والانشطار في الهوية والثقافة العربية .

الحلول

إن وصف الداء يستدعي وصف الدواء وإلا فما قيمة التشخيص والفحص ،إذا لم يتبعه علاج شاف ناجع ، لذلك ينبغي بعد ذكر أخطار العولمة ذكر الحلول المقترحة من الباحثين بشأن مواجهة العولمة وسنركز هنا على الحلول الخاصة بمنطقتنا العربية ومن هذه الحلول :

١- دعوة الدول العربية والإسلامية للدخول في تكتلات اقتصادية ، تحقيقاً للمصالح المشتركة لأن النظرة التاريخية والواقعية الموضوعية الواعية تثبت أن النهوض في العالم العربي الإسلامي لن يكون إلا بالتكامل والوحدة ، وأنه لا يمكن لأي قطر عربي أو إسلامي أن ينهض ويواجه التحديات منفرداً.وأول خطوات هذا التكتل هي توحيد العملة وإيجاد أسواق مشتركة وتيسير تبادل السلع والاستثمار .

٢- الاهتمام بالبحث العلمي والعمل على تطويره ودعمه والعمل على إنشاء هيئة محلية مرتبطة بهيئة غربية عليا هدفها دعم البحث والتطوير واستقطاب التقنية المناسبة .

٣- الاهتمام بالمواهب وتنميتها والعمل على اجتذاب العقول والكفاءات ووقف نزيفها من خلال هجرتها إلى الخارج .وذلك من خلال توفير

العيش الكريم لها والإمكانيات المطلوبة لأبحاثهم وأعمالهم .

٤- تكوين قاعدة بيانات موسعة لخدمة النشاط الاقتصادي العربي الإسلامي.وتبادل الخبرات والتجارب.

٥- الارتكاز على الثقافة العربية الإسلامية والانطلاق من التصور الإسلامي في نظرته للإنسان والحياة والمجتمع والكون والعمل على أسلمت كل جوانب الحياة، لأننا لم ننهض إلا مرة واحدة حينما طبقنا الإسلام ، الإسلام الذي جعل من رعاة الغنم رعاة الأمم ، فنحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا ، وتجربتنا الحديثة أكبر دليل إلا إذ كنا لازلنا نعتقد أننا في عصر النهضة التي قال فيها البيحاني :

سموك يا عصر الظلام سفاهة عصر الضياء وأنت شر الأعصر

وعبر عن هذه الحقيقة شعراً، "لأن الشعر انعكاس خلاق للمجتمع"[٤٣] الشاعر اليمني محمد سعيد جرادة فقال:

أيها الغالون في تعليمنا مبدأ الدستور من أين ورد
وعلى أي طريق جاءنا ومتى جاء وقد طال الأمد
وبماذا كتبت أسطره بنيوب الصل أم ظفر الأسد
درسكم هذا ثقيل مرهق وعجيب أنه درس معد
شرعة الأمة من بيئتها إن للحكم من الشعب السند
والدساتير التي تكتبها صورة من رأيها والمعتقد
والتعاليم التي لم تكتنف أمةً بالأمس لا تحيا لغد
واسألوا التأريخ في أطواره أي دستور دخيل قد خلد[٤٤]

والهوية الثقافية لها مستويات ثلاث (فردية ـ جمعوية ـ وطنية قومية) والعلاقة بين هذه المستويات تتمدد أساساً بنوع الآخر الذي تواجهه . والعولمة ليست مجرد آلية من آليات التطور الرأسمالية إنما هي أيدلوجيا تعكس إرادة الهيمنة على العالم والأيدلوجيا لا يمكن مواجهتها إلا بأيدلوجيا مقابلة.

٦- العولمة شيء والعالمية شيء آخر ، العالمية تفتح على العالم عن الثقافات الأخرى واحتفاظ بالخلاف الأيدلوجي ، أما العولمة فهي نفي للآخر وإحلال للاختلاق الثقافي محل الصراع الأيدلوجي .

٧- إن حاجتنا إلى الدفاع عن هويتنا الثقافية بمستوياتها الثلاثة لا تقل عن حاجتنا على الكتاب الأساس والأدوات التي لابد منها للدخول عصر العلم والثقافة ، وفي مقدمتها العقلانية والشوروية .

٨- إن المواجهة الشاملة بيننا وبين الأخر حتمية ولابد في هذه المواجهة من تجديد الثقافة أي ثقافة لا يمكن أن يتم تجديدها إلا من داخلها بإعادة بنائها وممارسة الحداثة في معطياتها وتأريخها والتماس وجوه للفهم والتأويل لمسارها تسمح بربط الحاضر بالماضي في اتجاه المستقبل .والذي ينكر ذلك إنما مثله مثل من يدفن رأسه بالرمال وجسمه كالجبل أمام الصياد، أما القائلون بحتمية العولمة فيرجع هذا الاعتقاد عندهم إلى علتين هما: اليأس الذي أصابهم من شدة الموجة الموجهة إليهم، وخلطهم بين العولمة كثقافة وأيدلوجيا ومفهوم وبين أدوات ووسائل العولمة كالتكنولوجيا والتقنية الحديثة

كالإنترنت والموبايل والقنوات الفضائية من جهة أخرى ،
بدون إعداد العدة ومواجهة الهجمة الشرسة التي تستهدف دين وعقيدة ولغة وتراث وتأريخ أمم ذات عمق تاريخي ،فإن إنساناً ضده الأمم بدون المقاومة والتحصين الذاتي والانطلاقات المعرفية سيغدو إنساناً هامشياً ويكون نزيل المعتقلات الاختيارية وحطاب الغابات الكثيفة من نعاس الحياة وسيبقى مسكوناً بغطاءات يحرسها ولا يمسها، فضاءات تعضه في القلب والذاكرة . مثله مثل من يدخل المعركة بدون سلاح .

[١]) بنية مفهوم العولمة في الخطاب العربي المعاصر(مراجعة نقدية) ،عبدالله محمد الحميد، شؤون اجتماعية ،ع٨٣، س٢١ ، خريف٢٠٠٤، ص٩٦،٩٥

[٢]) العالم الإسلامي وتحديات العولمة، الحصين عصمة ، مجلة الكلمة ،عدد ١٩، السنة ٥ ، قبرص ، ربيع ١٤١٩هـ ، ص٧٥.

[٣]) العولمة ومستقبل العالم الإسلامي ، فتحي يكن – رمز طنبور ، بيروت ، مؤسسة الرسالة،ص١٠.

[٤]) فخ العولمة (الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية) ،تأليف :هانس-بيتر مارتين – هارالد شومان ، ترجمة: د.عدنان عباس علي ،مراجعة وتقديم :أ.د. رمزي زكي ،عالم المعرفة ،الكويت ، ع٢٣٨،ص٨ .

[٥]) الثقافة العربية وعصر المعلومات ، نبيل على ، عالم المعرفة ، الكويت ،ص٣٩ . ثقافة العولمة وعولمة الثقافة ، مجلة قرطاس ، محمد بسطام الفهد ، عدد ٢٥ ، بتاريخ : ١ / ١٢ / ٢٠٠٠م .

[٦]) المصدر نفسه .

[٧]) فخ العولمة ،ص٦٨

[٨]) المجلة العربية ، محمود العالم ،ص٤٢.

[٩]) مقدمة ابن خلدون،، بيروت، ، دار العودة، ، ص١١٦.

[١٠]) رؤيتنا الثقافية وتحديات العولمة ، عبد الله موسى، مجلة النبأ ، عدد ٢٩ ، س٤ ،شوال١٤١٩.نقلاً عن ٢٠٠٥/١/٢٠www.google.Com

[١١]) فخ العولمة ، ص٤٥ .

[١٢]) ما بعد الرأسمالية ، سمير أمين، سلسلة كتب المستقبل ٩، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ،١٩٨٨،ص٢٤٧.

[١٣]) التين ،آية (٤) .

[١٤]) الثقافة هوية الشعوب ، سعيد علي الأصبحي ،صحيفة ٢٢مايو ،ع٥٨٤ ، صنعاء ، الخميس ٣مارس٢٠٠٥ ،ص٤.

[١٥]) النساء ،آية (١٣٩) .

[١٦]) رواه البخاري ومسلم .

[١٧]) ثقافة العولمة وعولمة الثقافة ، مجلة قرطاس ،إصداراتنا في وسائل الإعلام . نقلاً عن www.google.Com٢٠٠٥/١/٢٠

[١٨]) المكان نفسه .

[١٩]) الثقافة العربية وعصر المعلومات(رؤية مستقبلية للخطاب الثقافي العربي) ،د.نبيل علي ،عالم المعرفة ، الكويت ،العدد٢٦٥ ،ديسمبر ٢٠٠١ ،ص٤٠٦،٤٠٥ .

[٢٠]) الثقافة وهوية الشعوب، ص٤.

[٢١]) التقريب الثقافي وانعكاساته التربوية والتعليمية في الوطن العربي ، د/ يزيد عيسى السورطي ، المجلة العربية للتربية ، الصادرة عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ،مج ٢٣، العدد الأول ،ربيع الثاني ١٤٢٤هـ يونيه ٢٠٠٣، ص ٨٢.

[٢٢]) التقريب الثقافي وانعكاساته التربوية والتعليمية في الوطن العربي، ص٦٢ .؟

[٢٣]) الإسلام في وجه الزحف الأحمر ،الشيخ محمد الغزالي

[٢٤]) التقريب الثقافي وانعكاساته التربوية والتعليمية في الوطن العربي، ص٨٢ .

[٢٥]) رؤيتنا الثقافية وتحديات العولمة ، عبد الله موسى ، مجلة النبأ ،ع ٢٩ ، السنة الرابعة ،شوال ١٤١٩، ص . .نقلاً عن ٢٠٠٥/١/٢٠ www.google.Com .

[٢٦]) البقرة، آية (٢٥٦) .

[٢٧]) الكهف ، آية (٢٧) .

[٢٨]) ظاهرة العولمة رؤية نقدية ، د . بركات محمد مراد ، كتاب الأمة ، ع٨٦ ،قطر ،مطابع الراية ،ذو القعدة١٤٢٢ه ،ص٤٠.

[٢٩]) المائدة ،آية (٨) .

[٣٠]) العولمة المزعومة ، رجاء جار ودي ، تعريب د.محمد السبطلي ، صنعاء ، دار الشوكاني نص١٧ .

[٣١]) إشكالية نتائج وإفرازات الديمقراطية ، سامي محمد الدلال ،البيان ،ع١١٨ن، س١٢، جمادي الأخرة ١٤١٨ أكتوبر ١٩٩٨، ص٩٥.

[٣٢]) فخ العولمة ، ص ٣٧ .

[٣٣]) ظاهرة العولمة ، ص ٢٨ .

[٣٤]) مجلة الكلمة ،العدد ١٩ ، ص ٨٢ .

[٣٥]) ظاهرة العولمة رؤية نقدية ، ص٤٠.

[٣٦]) ظاهرة العولمة ، ص ١٥٦ .

[٣٧]) العولمة المزعومة ، ص ١١١

[٣٨]) المصدر نفسه ،ص ١١٤، ١١٥ .

[٣٩]) العولمة وتداعياتها على الوطن العربي ،ص ٢٠٩ .

[٤٠]) إشكاليات نتائج وإفرازات الديمقراطية، سامي محمد الدلال، ص٩٥

[٤١]) آثار بن باديس ، أعدها وصنفها وقدم لها عمار الطالبي ، دمشق ، دار اليقظة العربية ،١٩٦٨، ٤٨٣/٦ .

[٤٢]) ينظر : العولمة وتداعياتها على الوطن العربي ،عبد الجليل كاظم الولي ص ٣٢ ،٣٣ .

[٤٣]) الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن ، د.عبد العزيز المقالح ، بيروت ، دار العودة ، ص١٥٧ ، ص١٥٧.

[٤٤]) الأعمال الكاملة ، محمد سعيد جرادة، عدن ، مؤسسة ١٤ أكتوبر للطباعة والنشر ، ط١ ،١٩٩٧ ،ص١٢٨.